من حكايتِي...

"تعلمت أن أكون صوتًا"

منذ أيام وأنا أحاول كتابة هذه القصة، قصة تتحدث عني أنا. بعض الكلمات لم أستطع كتابتها، ربما لأنها تحمل في حروفها جروحاً عميقة، أو لأنني لم أمتلك الشجاعة الكافية لمواجهتها فالرعب و الحياة التي نعيشها كصحفيين\ات في شمال غرب سوريا لا توصف.

"محاصرون بالخوف، الخوف من أن يأتي الدور علينا، الخوف على من نحبهم، على حياتنا التي هي تحت تهديد دائم".

هكذا هي أيامي؛ اليوم وما قبل اليوم؛ عشت في مدينتي أربع سنوات تحت حكم تنظيم داعش، كنت حينها ممرضة ومسعفة في مشفىً ميداني. وبالرغم من أني كنت من اخترت هذا العمل في البداية، لكنه تحول لطوق نجاة أكثر من كونه خيار إبان حكم التنظيم، محاولة للنجاة من الاعتقال والموت تحت تهديداتٍ غير مباشرة طالتني وطالت عائلتي.

رأيت الجرحى يومياً، نساء ورجال وأطفال، الجميع كان ضحية القصف، أو انتهاكات ارتكبها داعش بحق كل من رفض الانصياع لأوامرهم. كانت جثث الشباب ممن تم تنفيذ القصاص بحقهم تعرض على الطرقات، كرسالة ترهب من يفكر في التمرد أو العصيان.

كان الخوف هو الشعور الذي يسيطر علينا خلال تلك السنوات العنيفة، خوف لم يفارقنا للحظة، كل شيء حولنا كان مرعبًا والموت يحيط بنا من كل جانب، فترانا نخاف على أنفسنا وعلى فقدان من نحب، ذلك الخوف المستمر ألا ننجو أبدًا.

SCINTILLA FOUNDATION
شبكة الصحفيات السوريات
Syrian Female Journalists Network

ازداد الضغط والتضييق في الفترة الأخيرة قبل هروبنا، حينها كنت أعمل في قسم الإسعاف أداوي أجساداً قد تفقد حياتها في أي لحظة، بينما أنا نفسي أعيش تحت رعب مستمر مع انعدام فرص الهروب وحصار المدينة بشكل خانق.

تمكنا أخيراً من الهرب!

كان الطريق صعبًا جدًا، وقد امتلأ بالقناصة والألغام وجثث لناسٍ حاولت الهروب وفشلت لسببٍ أو آخر. نجحنا في النجاة ووصلنا إلى بلدة جرابلس، وكأننا عبرنا من الموت إلى حياة جديدة. بعد عشرين يوماً فقط تحررت مدينة الباب من قبضة داعش، عدنا إليها ووجدنا دمارًا شاملًا في كل مكان، لم يبقى لنا شيء على الإطلاق، لا منزل ولا حياة لم تعد مدينتنا هي تلك التي عرفناها.

بمزيج من الألم والأمل بدأنا من الصفر، كان علي أن أواجه الحياة الجديدة وأن أبحث عن مساحتي مرَّة أخرى. وفي عام 2017 **انخرطت في العمل الصحفي**، بدأت أولاً كمتطوعة في الدفاع المدني السوري ضمن المركز النسائي. خلال عملي كان يطلب مني أن أوثق النشاطات في المركز، وكنت أتساءل دائمًا كيف أنني لم أكن قادرة على توثيق تلك الانتهاكات التي شاهدتها أمام عيني عندما كان تنظيم داعش يحكم منطقتي؟، كيف أنهم لم يتركوا لنا وسيلة أو أداة في تلك الفترة، وقد منعوا كل أشكال التواصل مع العالم خارج المنطقة، حتى الإنترنت كان متاحاً في صالات خاصة فحسب، تلك الصالات كانت تخضع لرقابة صارمة بدورها.

ما زالت تلك المشاهد تلاحقني حتى الآن، لم أتمكن من نسيان الرعب الذي عشناه في ذلك اليوم، الخوف من الهزات الارتدادية من فقدان أحبائنا، ومن أن نكون نحن الضحايا التالية، كنت أعمل جنبًا إلى جنب مع زوجي، ولكن في عقلي دائمًا كانت طفلتي وعائلتي.
مضى عام ونصف على تلك الكارثة، وما زلنا نحاول العودة إلى حياتنا الطبيعية ولكن الحياة لم تعد كما كانت، نحن نحاول التكيف مع واقع مليء بالتحديات والصعوبات، **نعمل رغم الخوف الذي يرافقنا كل يوم.**

واليوم... يوم عمل جديد
تتنوع اهتماماتي اليوم، أعمل على أكثر من منحى وموضوع، ولكن ما يشدني أكثر هو قصص النساء الناجيات من المعتقلات، قصصهن تحمل في طياتها معاناة وألمًا لا يُوصف، لكنهن هنّ انفسهن يحملن رسالة أمل. أسعى بكل جهدي لنقل هذه القصص إلى العالم ليعرف الجميع ما عاشته تلك النساء، وكيف استطعن النهوض من جديد.
في هذا البلد غير المستقر، لا يوجد ما يمكن تسميته بأمان حقيقي، فأنا أعيش دومًا في خوف من الاغتيال أو الاعتقال، أو أن تتعرض عائلتي للأذى.
كل يوم يحمل معه تحديات جديدة، في بلد يشهد اقتتالًا ومشاكل متواصلة، وكثيرًا ما نُمنع حتى من توثيق الأحداث التي تجري أمام أعيننا، وكأن الحقيقة تُخنق كل يوم.
في 26 آب/ أغسطس 2024, كنت أنا وزوجي نغطي المعرض التجاري الصناعي الأول في مدينة الباب وعند مغادرتنا، فوجئنا بحاجز تم نصبه لنا بشكل حتى يتم اعتقالنا أنا وزوجي بطريقة وحشية لا يمكن وصفها، أخذوا زوجي من بين يدي، وكان هذا هو الخوف الأكبر الذي لطالما طاردني في كل يوم، اقتادونا إلى مكانين مختلفين، ولم أكن أعلم ما الذي سيحدث لنا.

بعد عام من التطوع مع الدفاع المدني توقفت وبدأت أشارك بتدريبات متقدمة في مجال الصحافة، وفي الوقت عينه تقدمت إلى امتحان الشهادة الثانوية وحصلت عليها لأبدأ مسيرتي الجامعية في معهد الإعلام، استمريت في التدريبات وتعلمت كيف أكون صوتًا لمن عاشوا وعشن ظروف القصف والتهجير والمعاناة، كيف أوثق قصصهم/ن وأحمل رسائلهم/ن للعالم، رأيت الكثير من الحكايات التي كانت تؤثر بي بعمق، أحيانًا كنت أبكي معهم/ن وأحياناً أحاول مواساتهم/ن والتخفيف عنهم/ن.

حتى عام 2021، عملت مع العديد من المنصات الإعلامية والمنظمات الإنسانية رأيت خلالها الكثير من القصص المؤلمة نتيجة التهجير والحياة في المخيمات والقصف وغيرها من الظروف القاسية التي تمر على السوريين والسوريات. تزوجت وأنجبت طفلتي الأولى، كانت مرحلة جديدة وحياة جديدة لكنها لم تبعدني عن عملي، فعلى الالعكس تمامًا كانت بداية لأعمال جديدة وأقوى وخاصة بتواجد زوجي بجانبي الذي كان يعمل كصحفي أيضًا، استمريت بالعمل كصحفية مستقلة مع قنوات ووكالات إعلامية محلية وأجنبية وشبكات صحفية، وأصبحت جزءًا من حياة مليئة بالقصص والمشاهد التي تحفر دائمًا بذاكرتي.

زلزال 6 شباط

الحدث الأكبر الذي هز حياتي كان زلزال 6 شباط 2023، كنت أعمل على توثيق ما حدث في ذلك اليوم، وما زالت صرخات الأشخاص الذين كانوا/ن تحت الأنقاض تملأ أذني، أما أصوات الأمهات والآباء الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر إنقاذ أحبائهم/ن، فكانت تقطع قلبي، لم يكن هناك من شيء أصعب من رؤية الأمل ينكسر في أعينهم/ن، ووثقت عدستي وثقت هذه الانكسارات كما وثقت الفرح في عيون من خرجوا/ن على قيد الحياة.

بعد ساعتين من الخوف والاستجواب والإهانة، أطلقوا سراحي لكن زوجي بقي محتجزاً، لقد تم اعتقالنا بدون تهمة واضحة، وبطريقة شنيعة لا يمكن أن أنساها اقتحموا بيتنا وصادروا كل معداتنا، وكأننا مجرمون.

مضت سبعة أيام كأنها سبع سنوات، حتى تم الإفراج عن زوجي خرج سالماً، لكن الخوف لم يتركنا، اليوم ما زلنا نعمل، لكن دائماً ما يرافقنا ذلك الخوف، هل سنستطيع الاستمرار في هذا الوضع؟ هل سنتمكن من العيش دون خوف من الاعتقال أو القتل؟

على الرغم م كل الظروف تخرجت من كلية الاعلام والاتصال في جامعة حلب في المناطق المحررة من سيطرة النظام، لم تكن الظروف مهيأة للنجاح، بل كنا نتحايل على الحياة بأشياء سعيدة، وما كان يخفف عبء الأيام عني هو الأحاديث مع طفلتي وزوجي وعائلتي وأصدقائي، وضعت أهدافاً أمامي وفي كل مرة اجتهدت كان الحافز الأكبر هو الهروب من هذه الظروف، إلى بلد أشعر فيه أنني إنسانة، لا أعدّ فيه الزمن بساعات الكهرباء ولا تلاحقنا كوابيس القتل ولا نوبات الهلع.

اليوم أشعر بالسعادة، بشيء يشبه الانتصار، شهادتي لن تعلق على الحائط، لأنني أحببت ما درست، وعملت في اختصاصي منذ سنوات، على الأقل، حققت شيئاً من أحلامي والأهم أنني أصبحت امرأة صلبة تتحدى كل الظروف لتقف بثبات، أنا نبيهة الطه، صحفية سورية ومراسلة لقناة حلب اليوم وهذه قصتي.

وأخيراً، دائماً ما تكون الظروف القاسية بداية لطريق آخر.

نبيهة الطه